فريضة الحج

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ/ الشيخ محمد محمد المدني

عميد كلية الشريعة جامعة الأزهر

قبل أن أدخل في موضوع هذا المقال، أرجو أن يسمح لي القراء بكلمة يسيرة ... فأقول:

لما ظهر العدد الأول من مجلتنا هذه في ربيع الأول تفاءلنا خيراً، وقلنا: توفيق من الله وبشرى وطالع حسن، فقد أشرقت (رسالة الإسلام) في شهر (رسول الإسلام).

واليوم نقدم إلى قرائنا الكرام هذا العدد الرابع الذي نتم به سنتنا الاولى، ومن حقنا ان نتفاءل أيضا بهاذ الختام الذي صادف موسم الحج الاكبر، وصادف منه على الأخص عشر ذي الحجة التي يقول فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " ما من أيام أحب إلى الله فيها العمل من عشر ذي الحجة "، فالحمد لله الذي جعل ختام عامنا الأول سعيداً، كما جعل بدأه سعيداً، ونساله جل شأنه ان يهب لنا من لدنه في سائر أحوالنا رحمة تضئ لنا الظلمات، وتعصمنا من الشبهات والنزعات وتهدينا إلى صراطه المستقيم، كما نسأله جلت قدرته أن ينشر رحمته، ويتم نعمته، على وفده الابرار الذين تجردوا من كل شئ في هذه الدنيا ليفدوا إليه في بيته، يدفعهم الايمان، ويحدوهم الشوق، ويملأهم اليقين، وترتفع اصواتهم عند كل

شرف من الأرض أو منحدر بنداء صادر من الأعماق تخشع له القلوب، وتدمع منه العيون: لبيك إللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، فاللهم أكرم وفادتهم، وأحسن مثواهم، وأغدق عليهم من سحائب فضلك ورضوانك ما تشرح به صدورهم، وتغفر به ذنوبهم، وأرددهم إلى اوطانهم وأهليهم سالمين. ربنا إنهم زوارك، وعمار بيتك، وإنك لانت الكريم الرحيم.

بعد هذا الدعاء الذي اتوجه به إلى الله، والذي أعم به جميع اخواننا المسلمين في البلاد المقدسة أو على أبوابها، أقول:

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

لا نعرف عبادة من العبادات عنى بها القرآن الكريم على وجه التفصيل، وبينها بنصوصه أكمل بيان، وعرض لكل ما يلابسها أو يتصل بها من أحكام وشعائر، وأبرزها في صورة رائعة تملأ النفوس، وتهز القلوب، وتشعر المؤمنين بعظمة الله، ونعمة الله، كعبادة الحج:

أنبأنا الله تعالى: ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين، وأنبأنا انه اختار لبناء هذا البيت نبيا كريما هو خليله ابراهيم الذي جاهد الشرك وحطم الاوثان، وهاجر إلى ربه في واد غير ذي زرع، وأنبأنا بأنه هو الذي بوّأ لابراهيم مكان هذا البيت، أي هيأ له موضعه بإرشاد منه ووحي، وعين له سمته، وهداه اليه، ثم عهد في بنائه ورفع قواعده إلى هذا النبي الكريم وابنه اسماعيل وصور لنا موقفهما الرائع، موقف شيخ كبير، وابن له فتى صغير، يرفعان القواعد، ويبتهلان إلى الله في حرارة الايمان، وقوة اليقين، راجيين القبول، مفكرين في أمر الأمة حاضرها ومستقبلا، حريصين على هداها وتوفيقها " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم " وأنبأنا جل شأنه أنه جعل

هذا البيت مثابة للناس وأمنا، لا يجوز فيه قتال. ولا يجوز من حوله قتال، فمكن لهم بذلك حرما آمنا في بلاد مضطربة لا ضابط لشئونها، والناس من حوله يتخطفون كما يتخطف الطير، وأنبأنا أنه أكرم جيرانه، فجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم، ورزقهم من الطيبات، وجبى إليهم ثمرات كل شئ، وأنبأنا أنه أكرم رسوله حين استجاب له وهو يقلب وجهه في السمء، فولاه قبلة يرضاها هي هذا المسجد الحرام، ثم جعل شعائره شعائر الله، ففرض على الناس تعظيمها وحرم عليهم انتهاكها، وإرادة الالحاد أو الظلم فيها، وأوجب حجه على كل مستطيع، وجعل ذلك حقا " لله " على الناس من استطاع إليه سبيلا، وأشعر بأن رفضه أو التكاسل عنه لغير عذر كفر وجحود " ومن كفر فإن الله غني عن العالمين "، وجعل هذا الحج في أشهر معلومات " فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج "، وعرض لتفاصيل أحكامة، فذكر الطواف والسعي، وامر من أحصر بما استيسر من الهدي، ونهى عن حلق الرؤس قبل أن يبلغ الهدى محله، وجعل لمن كان مريضا أو به اذى من راسه فدية من صيام أو صدقة أو نسك، وأوجب على من أمن وكان متمتعا بالعمرة إلى الحج ان يقدم هديا، فإن لم يستطيع فصيام أيام بعضها في الحج وبضها إذا رجع ان كان من غير حاضري المسجد الحرام، وأمر الحجيج إذا افاضوا من عرفات أن يذكروا اسم الله عند المشعر الحرام، وأن يذكروه كما هداهم، وأن يفيضوا من حيث أفاض الناس، وأن يذكروا الله في أيام معدودات، وجعل البدن التي تذبح فيه من شعائر الله، ولفت إلى ما فيها للناس

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

من خير ومنافع، وأمر بإطعام القانع منها والمعتر، وأمر بعد تمام النسك بقضاء التفث، ووفاء النذر، والطواف البيت العتيق، إلى غير ذلك من أفعاله وتفاصيل أحكامه.

ما هو السر في عناية القرآن الكريم بتلك الفريضة على هذا النحو ؟ وهل الحج الا ركن من أركان الإسلام كسائر أركانه الخمسة التي ذكرت في الحديث

المعروف، بل كان آخر هذه الاركان ذكرا ؟ فلم خص عن بعضها بهذه العناية التفصيلية ؟ ولم لم يكن كالصلاة وهي عماد الدين، أو الزكاة وهي نظام التأمين الاجتماعي في الإسلام كما يسميها بعض العلماء، لم لم يكن كالصلاة أو الزكاة حيث فرضهما الله على المؤمنين إجمالا، ولم يعرض في كتابه لسائر تفاصيلهما.

أجل إنه لسر عظيم. لقد ذكر الحج بين أركان الإسلام الخمسة التي جاء ذكرها في الحديث الشريف، وجاء ذكره في آخرها، ولكن ليس ذلك لانه آخر هذه الأركان منزلة، وأقلها شأنا، بل لأنه أعلاها في مراتب الترقي والوصول إلى الكمال، فان اركان الإسلام الاربعة التي تقدمته كلها تمهيد له وإعداد بالتطهير والتزكية، حتى إذا أقبل المرء إليه كان صافي النفس، مطمئن القلب، راسخ الايمان، ولذلك كان الحج المقبول عند الله بمثابة خلق الله لصاحبة من جديد، وفي ذلك يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه "، فشهادة ان لا اله الا الله، وان محمدا رسول الله هي الخطوة الاولى التي يتقدم بها الإنسان فيعترف بأصل العلاقة بينه وبين ربه ورسول ربه، ومع ما لهذا الاعتراف قيمة في ذاته، فهو لا يكلف صاحبه بذلا ولا تضحية، ولا يستغرق منه جهدا ولا وقتا، بل إن فيه لذوي البصائر وأولي الالباب لذة هي لذة العرفان، وجمالا هو جمال الادراك للحق، فاذا آمن قلبه كانت الخطوة التالية لهذا الإيمان ان يتوجه إلى هذا الاله الذي آمن به، واعترف بوحدانيته، خاشعا مناجياً، في صلاة رسمها له، وحدد له أركانها وورسائلها وشرع له قبلتها، وهذه عبادة مع سموها وجلالة شأنها، لاتكلف صاحبها جهدا كبيراً، ولا تأخذ منه وقتا طويلاً، فأن ادنى ما تصح به صلاة الفريضة لا يتجاوز بضع دقائق وما زاد على ذلك فهو كمال، ثم تأتي بعد ذلك الخطوة الثالثة، وفيها شئ من التضحية والبذل، ذلك ان يؤدي زكاة ماله، فيقتطع جزأ معينا طيبة به نفسه ليعطيه الفقراء والمساكين، وبهذا الركن الثالث تكون أول تربية أيجابية، وتزكية نفسية من الشح والاستئثار يطهر الله بها القلوب، فإنه ما من شئ يتميز به الإيمان الصادق من التظاهر الزائف، كالتضحية المالية، ولقد نرى كثيراً

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

من الناس يصلون ويقومون ويصومون، حتى إذا وقفوا امام عقبة الشح والضن بالمال على البذل لم يقتحموها، وفي ذلك يقول الله عزوجل مصورا طبيعة الإنسان " فلا اقتحم العقبة وما ادراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيما ذا مقربة، أو مسكينا ذا متربة " ولكن الزكاة على ذلك ليست الا تضحية مالية بنسبة ضئيلة تقل عن أصغر ضريبة أهل الاموال على أدائها في أي بلد من بلاد الله وهم لا يشعرون، ثم تاتي بعد ذلك الخطوة الرابعة، وهي صوم شهر كامل متتابعة أيامه، يتخلى فيه المؤمن عن طعامه وشرابه وشهوته إيمانا بالله، واحتسابا لثوابه، ويصبر فيه على كثير مما يقاسي، وتلك منزلة من التضحية أعلى من التضحية في الزكاة، لان التضحية بشئ من النفس أعز وأغلى من التضحية بشئ من المال.

أما الفريضة الخامسة وهي الحج، ففيها ذلك كله على أبلغ وجه، وأكمل صورة: فيها الاعتراف بالله، والايمان برسوله إلى حد الترك لكل ما سواهما من المال والأهل والولد، فيها التوجه إلى الله، لا بواسطة قبلة بينه وبينها آلاف الأميال، ولكن بالرحيل إلى هذه القبلة نفسها، فيها بذل الكثير من المال عن رضى وسخاء، فيها التضحية بالنفس، واحتمال مشاق السفر والاغتراب، والتحلل من سلطان العادة في متع العيش ولذاته، فيها خلع والعمل والكدح وارتداء ثياب التطهر والاحرام والتسليم، وفيها إلى ذلك كله زيارة الله في بيته، والمثول بين يديه في المكان الذي قدسه، والزمان الذي قدسه.

هكذا شأن فريضة الحج: كل ما قبلها بمثابة التمهيد لها، مثل العبد فيها كمثل امرئ أحب ملكا عظيماً، ودان له وهو في طرف من أطراف ملكه بالخضوع والولاء، ينفذ أوامره، وخلص في خدمته، ويقوم بكل ما عليه من واجبات في سبيله، ثم يدعوه هذا الملك العظيم، فيهرول إليه مسرعاً، ويخلع نفسه من كل ما هو فيه، ويأخذ لهذه الزيارة التي ستتم في بيت الملك أهبتها، فيتزين ويتطيب، ويقطع المراحل الطوال حتى يصل إلى غايته، ويحظى بأمنيته !

" ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ".

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com